صحبة الصوفية

نور على نور

للأستاذ محمد على الطعمي — واعظ نجع حمادى

أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام « كن يقظانا وارتد لنفسك إخوانا وكل أخ لا يوافقك على مسرتى فهو عدو يقسى قلبك ويباعدك منى .

قال الشيخ أبو عبد الله بن عباد رضى الله عنه ، معنى هذا أن صحبة الصوفية هى التى يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم فيها أحد .

ونقول :

كل إنسان فى الحياة له أصحاب ينجذب إليهم ويعيش بينهم ويتبع مناهجهم الذى خططوه لأنفسهم ، وكل انسان له صفوة مختارة يجتمع بهم ويسمر إليهم ويتناول معهم أطراف الحديث ، ثم يسير فى دربهم وتنعكس عليه طباعهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وخير الأصحاب هم الذين تتبلور فيهم معانى الخير ومقاييس الهدى ويحاولون ما استطاعوا أن يصلوا ما أمر الله به أن يوصل .

وهذه القيم السامية تتبوأ مكانتها اللائقة عند الصوفية وتجد مرتعا خصبا فى أفقهم المعروف بصفاء الروح والتغلب على شهوات النفس ، وللقوم موسعات حية أفاضت فى حسن المعشر وأدب الصحبة والوفاء فى البأساء والضراء . وهذا يوضح لنا مبلغ ما كان عليه هؤلاء الأبطال من أمجاد وأسرار وكيف أنهم أسسوا أعمالهم ووضعوا علومهم على مبادىء جديرة بالإعجاب والإجلال ؟

يقول الجنيد رضى الله عنه « إذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه إلى الصوفية ، ذلك لأن دعواهم أبدا توصى بالتزام الأدب مع الخالق والتفرغ لعبادته والتلذذ بمشاهدته ،

وهم فى كل حين دوحة وارفة ترفرف بأغصانها فى ملكوت رب العالمين .

وليس كل من هب ودب يدخل فى حساب السادة الصوفية ويصير واحدا من مجموعتهم ... كلا فهؤلاء الأخيار لايدخل فى حسابهم ولا يترنح بدوكائهم إلا من تخلصت نفسه من أوضار الرياء وشوائب النفاق ... وأصبح الأدب فى حياته سلوكا وديدنا والأدب يكون أولا مع الله بحيث يواظب المريد على الطاعة ويجتنب المعصية « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى « ياعبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم »

إذاً صحبة الصوفية تنوير باطنى يحس به من مارس حياة هؤلاء الناس وتذوق دنانهم الممزوجة بحلاوة الايمان العامرة بجلال اليقين ، ثم إن فيها تهذيباً للأخلاق وتقريبا للخلاق وصفاء روحانياً مريحا يوصى بالرضا والقبول فى كل مرافق الحياة .

وأى إنسان يمشى فى ركاب هؤلاء القوم لابد أن ينجذب إليهم بسرعة فائقة ولابد أن تشمله عناية ربانية عارمة ، ولابد أن تصفو نفسه وتتخلص من هواها بحيث يصبح قرير العين جزلان .

كثير من الأشقياء أفسدوا وأجرموا ثم بالغوا فى الافساد والجريمة ، وقد حاولت كل القوى أن تصدهم عما هم فيه فأبوا وازدادوا إفسادا ولما اقترب منهم رجال الصوفية وخالطوهم وصاحبوهم استطاعوا أن ينقذوهم دفعة واحدة من ورطة الجريمة ويصنعوا منهم رجالا يذكرون الله بكرة وعشيا .

وكثير من الخصومات العائلية الكبرى فشلت الوساطات والشفاعات فى إزالتها ، وبفضل رجال الصوفية أيضا أزيلت العداوات ورفرف على الأسر الوئام والسلام .

ومهما يكن من شىء فالغفلة عن صحبة هؤلاء القوم رعونة وتحديهم جهل والقربى إليهم نور يهدى به الله من يشاء من عباده ، قال ابن عجيبة « وهذه المعانى إنما هى أذواق لاتدرك بالعقل ولا بنقل الأوراق ، وإنما تدرك بصحبة أهل الأذواق فلم ولا تنتقد »

إن لم تر الهلال فسلم
لاناس رأوه بالأبصار

وعلى المريد أن يستفيد من صحبة

القوم وأن ينشد مجالسهم وأذكارهم ويأخذ منها المفاهيم التى تؤهله للفتوح وكلما تذوق المريد حلاوة الصحبة أدرك ماتهدف إليه من توجيهات وإرشادات ، وأدرك أن الفتوح لايكتسب بالجد والمثابرة والعبادة فحسب بل ومن مجالسة السادة الصوفية وملازمة عظاتهم واستماع نصائحهم .

قال الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه « ولقد أردت فى بداية أمرى سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد والصوم والصلاة . فلما علم الله حسن نيتى قيض لى ولياً من أوليائه ، قال يابنى : اقطع من قلبك كل علاقة إلا الله وحده وأخل نفسك وأجمع همتك وقل « الله الله الله » ولاتزد على ما فرض الله عليك شيئاً إلا الرواتب »

فالمريد السعيد الموفق هو الذى يشتغل بالله وحده بغض النظر عن أى اعتبار آخر ، ومادام الله راضياً عنه فإنه ينهل فى سعادة أبدية ويستغنى به عن كل شىء وكل شىء ماخلا الله باطل.

تركت هوى سعدى وليلى بمعزل
وصرت إلى علياء أول منزل
فنادتنى الأكوان من كل جانب
ألا أيها الساعى رويدك فامهل
غزلت لهم غزلا رقيقاً فلم أجد
لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

وبعد :

فالإخلاص لمدرسة الصوفية من علامات القبول ، والتفانى فى صحبتهم اشراقة تضىء على جنبات النفس فتذيب المعصية وتبخر الذنب، والتأدب فى مجالسهم بداية الكمال ، والتعرف عليهم نور على نور وإلى اللقاء .

من أسرار المعرفة ..

قال العلامة الصوفى أبو سعيد الخراز :

« إذا أراد الله أن يتولى عبدا من عبيده فتح عليه باب ذكره فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجاب وأدخله دار الفردانية وكشف له حجاب الجلال والعظمة . فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو ؟ فحينئذ صار العبد فانيا فوقع فى حفظه سبحانه وتعالى وبرىء من دواعى نفسه »